علاقة الأدب بالزمن والأسطورة

آمال محمد أبوشويرب
قسم اللغة العربية – كلية الآداب
جامعة صبراته

مقدمة:

يظن الكثير من القراء أن بعض النصوص والأعمال الأدبية غاية في الصعوبة والغموض؛ لأن الكتاب يستندون في تشكيل وتنويع أعمالهم الفنية إلى التراث الفكري كالأسطورة والرمز والتاريخ والدين وبعض الثقافات الشعبية والموروثات القديمة، وبعض طقوس وشعائر الأمم العربية وغير العربية وغيرها من المعارف الإنسانية، فتتداخل وتتفاعل بنيات النصوص داخل خطاباتهم الشعرية، وليتمكن القارئ من التغلب على هذا الظن والغموض الذي يلف النص الشعري ويتمحور داخله؛ لابد أن يمتلك مخزوناً ثقافياً ولغوياً والأدوات والوسائل المعرفية التي تمكنه من فهم تلك النصوص وفك مغاليقها والتبحر في جمالها.

تتناول هذه الدراسة مفهوم الزمن وأثره داخل النص الشعري فالأزمنة تتداخل داخل النصوص بشكل فني لها غاياتها وجمالياتها، كما توضح ماهية الأسطورة وعلاقة الزمن بها وبالشعر، قائمة أيضاً على توضيح وتحليل واستقراء بعض النصوص الشعرية ما أمكن ذلك.

أولاً- ماهية الزمن:

الزمن كما جاء في معجم لسان العرب: اسم لقليل الوقت وكثيرة ، والجمع أزْمُنٌ وأزمانْ، وأزمْن الشيء: طال عليه الزمان.

والزمان: زمان الرطّب والفاكهة وزمان الحرّ والبرد، والزمن: الشهور من السنة، وأزمْنَ بالمكان أقام به زماناً أي مكث فيه كل وقته وبقي[1].

وفي معجم قاموس المحيط: أُزْمِنةٌ (اسم): الجمع زَمَنَ، يسافر في كل أزْمِنَة السنة: في كل فصولها، والجمع: أزمان وأزمُنْ.

والزَّمَنُ: الزمان وقت قصير أو طويل، وَزَمنٌ زامن: شديد مصدر (زمِنَ)، وعفا عليه الزّمنَ: تجاوزرته الأحداث وصار متخلفاً، قديماً بالياً. وقولنا مع الزَّمن: أي بمرور الوقت، وولّى زمنه: أنقضى عهده، وزَمِن الرجَّلَ: مرِضَ مرضاً دام وقتاً طويلاً، وزَمُنَ الشيخ: ضعف من كِبرٍ أو مرضٍ[2].

أما اصطلاحاً فقد حظى الزّمن باهتمام الفلاسفة والعلماء والأدباء على مر العصور، نظراً لما يتمتع به من أهمية في حياة الإنسان فلا مفر للحياة من التصاقات الزمن ولا وجود للزّمن خارج فضاءات الحياة.

يعرفه البعض بأنه يتضمن جملة من الثنائيات المتناقضة المتعلقة بالكون والحياة: كالوجود والعدم – والحضور والغياب، والزوال والديمومة، والموت والحياة – والشمس والقمر – والسماء والأرض.

فالزمان هو الوجه الآخر للكون لأنه شرع حركته الذائبة فيه هذه الحركة لها ثلاثة أبعاد (الماضي والحاضر والمستقبل)[3].

وهذه الأبعاد الثلاثة يسميها (أوغسطين) آناث الزمان الثلاثة إلى أحوال النفس وهي:

الذاكرة ← الماضي

والانتباه ← الحاضر

التوقع ← المستقبل

وهذا يدل على أن الزمان متصل بالنفس الإنسانية اتصالاً كاملاً[4] فهو الشكل الحسي الباطني السابق للأشياء المستقل عنها – وهو الذي ينظم في وعينا الباطني تشكل الأشياء وتمثيلها.

والزمن عند الناقد والأديب سعيد يقطين: "هو الحال أو اللحظة الحاضرة عند العرب، وعليه فقد انطلقوا من لحظة التكلم ليبحثوا إعرابياً وتركيبياً عن بعد الزمن، أي أن الزمن يخضع للإعراب كما يتم توظيفه لتصحيح عملية الإعراب"[5].

وقد اصطلح كثير من علماء النحو العربي على تقسيمه إلى:

(الزمن الماضي، والزمن الحاضر، وزمن المستقبل)، وأن الحاضر هو الوسيط والرابط بين الماضي والمستقبل، وهذه الأزمنة قد فرق بينها سعيد يقطين فيرى أنها ثلاثة أنواع: (زمن القص الصرفي، وزمن الخطاب النحوي، وزمن النص الدلالي)، وفي الزمن الأخيرة تتجلى زمنية النص الأدبي[6].

وبوجه عام يمكن تقسيم الزمن إلى قسمين رئيسيين الأول:

موضوعي له أبعاده الموضوعية الممكنة القياس ونعني به (الفيزياء)، والثاني: ذاتي؛ يدخل في نسيج التجربة الإنسانية، ونعني به (الأدب)، وهو حيوي متلون يتلون بتجربة الإنسان[7].

وهذا القسم الأخير يمثل المحور الأساس لهذه الدراسة.

وخلاصة القول في معنى الزمن لغة تنحصر على معنيين:

أ- بأنه مقدار معين من الوقت قليلة وكثيرة، قليلة نقدره بالساعات والأيام والشهور وكثيرة بالأعوام والسنين.

ب-المعنى الثاني: الحركة والاستمرارية إلى ما لا نهاية إن قصر الزمن أو طال.

ودالته اصطلاحاً لدى كل البحاث والفلاسفة دون الحصر ، غير محدد وغير ثابت المعنى يختلف باختلاف أنواعه سواء كان الزمن: زمن نفسي أو زمن أدبي أو زمن أسطوري أو زمن فلسفي أو تاريخي إلى غير ذلك من الأنواع.

ثانياً- ماهية الأسطورة:

يعرفها فراس السواح بأنها: "حكاية مقدسة ذات مضمون عميق يشف عن معانٍ ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان"[8].

أما أنس داود فيعرفها بأنها: "مجموعة من الحكايات الطريفة المتوارثة من أقدم العهود الحافلة بضروب من الخوارق والمعجزات التي يختلط فيها الخيال بالواقع، ويمتزج عالم الظواهر بما فيه من إنسان وحيوان ونبات ومظاهر طبيعية بعالم ما فوق الطبيعة من قوى غيبية أعتقد الإنسان بألوهيتها، فتعددت في نظرة الآلهة تبعاً لتعدّد مظاهرها المختلفة[9].

ويصرح رولان بارت بقوله: "إن الأسطورة تتجه أساساً إلى (الذاكرة)، وهي لا تنقل الواقع بل تغيره وتحرفه ، وهي من ثمة لا تعبر عن شيء بقدر ما تعبر عن قيمة ، بل هي قيمة"[10].

فقد أهتم الشعراء بتوظيف الأساطير في بناء قصائدهم بأنواعها العربية واليونانية والفرعونية والهندية وغيرها سواء باستنطاقها أو التقنع بها للتعبير عما يريدوا من أفكار ومعتقدات عبر رموز يلفها الغموض خوفاً وحيطاً وحذراً من القمع السياسي والاقتصادي المتمثل في القهر والاستعباد للحريات وتكميم للأفواه عن النطق بالحق والعدل داخل مجتمعاتهم. أو لتوليد معانٍ جديدة في النص الشعري تقرب المسافة بين الشاعر والجمهور، (البات والمتلقي).

وتشترك الأسطورة مع الأدب في اللغة المجازية التي يراها البعض تعبيراً عن حياة الشاعر الداخلية التي يتحدث عنها دون وعي، ويراها البعض الآخر تعبيراً عن الذات الجماعية، وبذلك اللاّوعي تظهر الوظيفة الأساسية للغة التي بها يعبر عن أغراض متنوعة بحيث تتيح لكل شخص إيصال تجربته الشخصية إلى غيره.

والأسطورة لها وظيفة تفسيرية متخصصة تتمثل بإعطاء تفسير وتعليل عقلاني بأسلوب قصصي، لذلك لاقت اهتمام شعراء الحداثة بها، وأن العلاقة بينها وبين الشعر هي علاقة تقارب وتوحد وتجانس في النشأة والوظيفة. فالرؤية الحقيقية للشعر هي نبض داخلي ورؤية عميقة للذات الإنسانية[11].

ثالثاً- علاقة الشعر بالزمن والأسطورة:

"إن الإبداع الفني لا ينفصل بحال عن الواقع، وإنما يستمد منه كل مقومات الفنية ورؤاه الفكرية، لذا يحيا الفنان معبراً عن بيئته بكل ما فيها من أحداث وصراعات وآمال وطموحات،

يربط في ذلك بين الزمان والمكان، وبين الماضي والحاضر ويستشرق آفاق المستقبل في بعض الأحيان.

ويأتي النغم الهادر في ضمير المبدع الإنسان ليقارب بين شتى المواقع والأحداث، يقارب ويباعد، يشابه ويناظر، ليخلع على واقعه المعاش ما يقاربه عن أحداث ماضيه القريب أو البعيد لتكون هذه الاتصافات بمثابة عودة جديدة إلى الأحداث في زمانها ومكانها، ويكون التاريخ كأنه يعيد نفسه وإن اختلفت الظروف والأحداث والملابسات والأشخاص، وبين الوعي واللاوعي يكشف المبدع من ألوان العلاقات ما يخفى على كثير من الناس، فيقرب المسافات بين الواقع والمثال، يفعل ذلك بحرفية بالغة إذ يكفي إشارة منه عابرة لتجلب لنا تاريخاً طويلاً من الأحداث والمواقع التي أثرت في حياة الإنسان"[12].

لقد احتضنت الرموز القديمة عالم الإنسان الذي عاش في رحاب الثقافة الأسطورية، وانبثقت أساطير متنوعة من خلال ممارسته لطقوس الميلاد والموت وشعائر التكفير والحظر والإباحة، وكان من شأن تلك الأساطير أن تضفي على عالم الرمز (النظام والمعنى والتركيب)، فقد قامت التصورات لنشأة الكون والتفسير السحري لظواهره المتنوعة وعلى هذا حددت الأسطورة الزمان والمكان الأولين للعالم[13].

"فبدأت الأسطورة كما بدأت، لكنها أخذت تتغلغل في الأدب وتجنح صوب الشكل الإبداعي على أيدي الأوروبيين شيئاً فشيئاً، إلى أن استقرت على وضعها الذي يعرفه العامة اليوم، ويتناولها الشعراء بامتصاص دلالاتها، هذه الدلالات جعلت منها قبلة فنية يُيمم الشعراء صوبها كلما طاف بهم طائف تأثري أحوجهم إلى معرفة النفس البشرية في بدء تكوينها ، لأنهم على إدراك واعٍ بأن العودة إلى استخدام الأسطورة في الشعر عودة حقيقة إلى المنابع البكر للتجربة الإنسانية ، ولا يعني هذا بسط صفة الحقيقة على الأسطورة، فهي في حقيقتها لون من

العبث اللاّشعوري تنتجه منطقة اللاّشعور لطمأنة الشعور بإيجاد ملاذ وهمي تسكن إليه الانفعالات الناجمة عن عجز الإنسان عن مواجهة بعض ما يلاقيه في الطبيعة. فعندما لا يستطيع الإنسان أن يتحمل وضعية القهر والعجز ببساطة، أو أن يتقبلها بواقعيتها المادية الخام لا بد له في كل الحالات من الوصول إلى حل ما يستوعب مأساته ويسيطر عليها وإلا أصبحت الحياة مستحيلة، فإذا لم يجد الحلول لها لجأ إلى الحلول الخرافية والسحرية إذا عزت السيطرة المادية على المصير حاول المرء توسل الأوهام يعلل بها للنفس ويجمل بها الواقع، فهي انزياح عن الفكر بفرض الخمول على البصيرة وتسليم العاطفة قياد الأحكام فما هي إذن إلا تسرية عن النفس بما تحمل من أسلوب قصصي وخوارق غيبية تبهر الإنسان، أو حوادث طبيعية يعجز العقل عن إيجاد تفسير علمي لها، فيضع لها تفسيراً خاصاً يتوافق مع رؤيته"[14].

إن الأديب لا غنى له عن الزمن، فلا بد له من أن ينسج في تياراته المتعددة فالشاعر الواقعي تحركه أحداث المجتمع الإنساني من خلال ميثاق الالتزام الذي تحدده العلاقة بينهما، فالزمن هو المسار الذي من خلاله يوصلنا الشاعر لما يرمي إليه في قصائده[15].

"فالأدب هو التعبير الحر عن وعي الأمة في آمالها الكبيرة ومثلها من خلال التصوير الصادق لواقعها بما يشف عنه من إمكانات أو يوحي بها، فقضية التراث الثقافي والأدبي تحظى دائماً باهتمام المجتمعات ذات الحضارات القديمة العريقة بوجه خاص، فالعالم القديم الذي أنتج الأساطير وكانت بالنسبة إليه وسيلة تلاؤم مع وسطه الفكري الداخلي، ووسطه الطبيعي الخارجي هو عالم بعيد عنا زمنياً، والعديد من حضاراته المنطوية في الزمن السابق قد ظهرت أمامنا من تحت الركام ولم نكد نعرف عنها شيئاً، فهذه الحضارات موغلة في القدم من جهة ومنقطعة من جهة أخرى، والحضارات التي صنعت الأساطير تنتظم في زمان ثقافي متصل ومتجانس، بل إنها تعاني أيضاً من مشكلة التباعد الزمني والانقطاع بعضها عن بعض في أحيان كثيرة"[16].

إن "الزمن هو الصورة لتي ينعكس من خلالها رصيدها في هذه الحياة وتتشكل الخبـــرة فيها، وهو ما يبرر ويؤكد بقاءنا في فترة زمنية معينة لأنه "وسيط الحياة" وهو دون جدل دليـــل وعي الإنسان لذاته ووعيه لمجتمعه لما يتفق به من ديمومة تضمن انسيابه وتكمن مـــن قياســـه بغض النظر عن نهجه "العلمي" أو "الأدبي" حيث ينظر للأول مـــن خـــلال البنيـــة الفيزيائيـــة والحركية الديناميكية والتي قد تجنح إلى المكان لتمثلها في النقط والعلامات، أما الزمن في الأدب فإننا نراه فيما نقله "هانزميرهوف" عن ديلثي" (Dilthey) الإنسان قد لا يملك الطبيعية، ولكنـــه بالتأكيد يملك تاريخا وهكذا يغدو الزمن أو الناحية التاريخية للوجود الإنساني نقطـــة محوريـــة لتحليل وجود الإنسان. والزمن في نظر "هيدجر" هو المقولة الأساسية للوجود – الـــزمن الـــذي يختبر الفرد ذاته، لا كما يسجله العالم الطبيعي أو المؤرخ ، فالزمن مشحون بالمغزى بالنســـبة للإنسان، لأن الحياة الإنسانية تعاش في ظل الزمن"[17].

"فالزمن من المفاهيم الجوهرية في العصر الحديث، ولعله أهمها وأدقها لكونه جـــزءاً لا يتجزأ من كل الموجودات وقوة تفعل فيها باستمرار، فقد تعامل العرب مع شتى أنـــواع الـــزمن كالزمن التاريخي والزمن الرياضي والزمن الذاتي والزمن الديني والزمن الأسطوري والـــزمن النفسي"[18] كما يعبر الأدب عن ضمير الأمة ووعيها وتفكيرها، وربما أبعد من ذلك فهو يعبـــر عن "فكرة الزمن" وذلك من خلال توصيف الراهن وخمائره في الماضي مـــن جهـــة أخـــرى، فارتباط الطموح الإنساني بالزمن يعني وجود هذه الكمائن الزمنية لوجود المستقبل في الحاضر بشكل مجازي غير مرئي أو ملموس، لكنه معبر عنه في التبئير غير المقصود، وهـــذا التبئيـــر الأخفائي في الأدب من شعر وقصة ورواية لا ينتج عادة عن معطيات معرفية محددة وواضحة على صيغة السبب والمسبب، لكنه ثمرة لخصائص انتروبولوجية سيميائية تتوضع فـــي الخفـــاء

اللآواعي وتظهر بصيغ قد تختلف من حيث التوصيف الشكلاني، لكنها تحل كنتائج واعية في وضعيات مختلفة شكلاً ومتناهية مضموناً مع مكوناتها أو معطياتها التاريخية[19].

"فليس من الغرابة أن يحضر الحديث عن الزمن "ماضياً وحاضراً ومستقبلاً" في شعرنا العربي، وبل في الأدب العربي كله، ذلك أن قضيته ما برحت تؤرق الأنام، فضلاً عن الأدباء والشعراء وأصحاب الحس المرهف والعيون المبصرة لما لا يراه غيرهم، ولما كان الأدب الصادق مرآة تعكس ماضي نفس صاحبها، كان الحديث عن الأعمار والأجيال والأزمنة الغابرة والذكريات الخالدة واستشرقات المستقبل يشغل مساحة لا بأس بها فيه.

والحديث عن الزمن في الشعر عبر مراحله المختلفة تقولب في أشكال عدة وتسلك في مسالك شتى، منها الحديث عن الزمن الماضي وتمثل في بكاء الأطلال والتغني بأجمل الذكريات والحسرة والندم على ما مر من عمر الشباب دون بلوغ المراد، أو إحساس الشاعر بأنه أنفق عمره في اللهو والضياع، إذ بلغ هذا الملمح في الشعر مبلغاً عظيماً، لا سيما في الشعر الجاهلي، إذ كان بكاء الأطلال والحسرة على ما قد كان في الأيام الخوالي ركنا ثابتاً في بناء القصيدة في الجاهلية".[20] فقد ذكر الشعراء الزمن الماضي وتغنوا بحلوه ومره كما تغنوا بالديار والأطلال وموارد المياه وأيام الصبا والطفولة، فهذا امرؤا القيس يقول في معلقته:

قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل بسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْملِ[21]

فهو يتذكر ويستوقف الركب حنينا إلى الزمن الماضي وذكرياته مع محبوبته.

ومن صور الحديث عن الزمن في الشعر العربي ما جاء عن الزمن المعاش، وذلك إما بالسآمة منه وتمني انقضائه عاجلاً أو العكس قول امرئ القيس أيضاً في معلقته:

ولَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُوْمِ لِيَبْتَلِي

لْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

ألاَ أَيُّهَـــا اللَّيْـــلُ الطَّوِيْـــلُ ألاَ انْجَلِـــي بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْـــبَاحُ منِـــكَ بِأَمْثَـــلِ[22]

قد سأم الشاعر من الليل وجموحه راجيا من زمنه أن ينجلي ويشرق الصباح لعله أفضل حالاً رغم نفيه لذلك.

وقول (المتنبي) الذي يتساءل عن حال قدوم العيد في زمن المستقبل وعن الحـــل الـــذي سيأتي به هذا العيد هل كما مضى أم بأمر جديد مختلف عما سبق يقول:

عيـــدٌ بأيّـــةِ حـــالٍ عُـــدتَ يـــا عيـــدُ بمَـــا مَضَـــى أمْ بـــأمْرٍ فيـــكَ تجْديـــدُ

أمّـــــا الأحِبّـــــةُ فالبَيْـــــداءُ دونَهُـــــمُ فَلَيـــتَ دونَـــكَ بِيـــداً دونَهَـــا بِيـــدُ[23]

"كما تكشف وظائف النقد الأدبي عن مكونات متوضعة في النتاج الأدبـــي لـــم يتقصّـــد الأديب إيرادها صراحة، لكنها تطفح من لا وعيه لتعبر عن بيئته الثقافية، وأمثال ذلك التوضـــع موجودة بكثرة في النتاج الإبداعي من الشعر إلى القصة إلى الرواية، فسمة القصيدة من فرح أو حزن تقدم كشفاً عن البيئة الثقافية للوجود الاجتماعي المنعكس في الإدراك والوعي التـــاريخي، وكذلك الأمر في الأدب الروائي والقصصي"[24].

"ونلمح العلاقة بين الزمانية والمكانية في الأدب وعلاقتها بالبيئة هي وجود المرأة التـــي تعد المدخل إلى هذا التعبير لأنها كانت عبر التاريخ هـــي رمـــز الخصـــب والحيـــاة والتجـــدد والديمومة وهي الآلهة الجميلة التي تمنح الحياة سحر الألق والتفاؤل، كما هو الحال في أسطورة (إيزيس) و(ارتيميس) و(الإلهة أثينا) و(عشتار) و(إينانا) وغيرهن اللاتي صاغهن الفكر الإنساني عبر التاريخ على هيئة إناث أسطورية لحاجته إلى الديمومة وحبه للبقاء"[25]. وأكثر ما مثلت ذلك "عشتار" التي تدعي سيدة الطبيعة وإله الخصب والنماء. ومـــن ثمـــة "فإنـــه حضـــور الـــزمن الأسطوري – كوسيلة عمل شعري وإلهام – من شأنه أن يجعل فعل الإبداع الشعري من صميم

التاريخ، وإن اختلفت المقاصد والرؤى من الشعر إلى التاريخ فليس هناك تعارض حقيقي بين التاريخ والشعر"[26].

فمن تصنيفات الزمن الأسطوري وخصائصه أن يزيل عن الأشياء صفتها التاريخية ليجعل منها موجودات طبيعية لا تاريخ وراءها فيتقلص ما فيها من بعد إنساني ويموت مفهومها السياسي، وميزة الزمن الأسطوري تلك جعلته مصدر إلهام للشعراء يتوطؤونه للإفصاح عن رغباتهم اللاتاريخية المطلقة ويتوخونه مناخاً ملائماً لإنشاء القيم الإنسانية الغنائية، فما كان من عالم المنطلق لا تسعه حدود، وفي سبيل له هو الزمن اللاتاريخي واللامحدود.

فالزمن الأسطوري هو الموقع الذي يقيم داخله الشاعر على نحو شعري، ويكشف عن معالم الكون، وتتراءى له داخله صيغ جديدة من التشكل، فليس الزمن الأسطوري منفصلاً عن ذات الشاعر إنما هو امتداد لها، وهو المجال الحيوي الذي تتحقق فيه الأشياء بكل بساطة وتجلى عنها كل غموض وتبرئها وتمحنها بساطة المعطيات الجوهرية، وتقضي على كل أنواع الجدلية فيها[27].

"فلا مناص من ملاحظة أن الزمن الأسطوري ليس شيئاً سكونياً، إنما حركته ناتجة عن طبيعته الاحتضانية المقامية وهو الفضاء الذي يحتضن زمن الأنا الغنائي ويفعل جدلياً في هذا الأنا حينئذ يكون الزمن الأسطوري متفتحاً على قراءة تأويلية جديدة للعالم ومصدر للرؤية التي هي في قالب رؤيا حالمة، كما أن الزمن الأسطوري مدخل من مداخل دراسة التاريخ من الناحية الشعرية، وللمقاربة الشعرية قوانينها الذاتية التي لا تتلاءم والمقاربات الأخرى كالعلمية والتاريخية الصرف"[28].

"فالشاعر يبدع في الكون ويجسد إبداعه ذلك في أشكال فنية متميزة تفاجئ القارئ باعتبارها مواطن جمال، ولكن الشاعر المتوغل والمتعمق في متاهة الزمن المستعر وجدانه

بلهيب السؤال الشاك، المنقاد لأسئلة الوجود الخارقة، يتجاوز هذا المدى الأدنى إلى المدى الأقصى، فهو يرتقي بإبداعة من ملاحظة المعرفة إلى إنشاء المعرفة ، فأدبيته موظفة في إنتاج معرفة إبداعية تفكك الأشياء ثم تعيد تشكيلها وتستحضر التراث، لا تستوحي منه فقط، بل لتؤوله وتخلق من أصواته المتعددة فاعلية ديناميكية تسهم حقاً في بلوغ أقصى درجات الرؤيا الشعرية"[29].

فالرؤية الشعرية إذن مطوعة برؤية مدوية للزمن لا ترى في الشيء مركباته بقدر ما ترى فيه الشيء نفسه، وهي من ثمة أقدر على مداخله الأشياء والنفاذ إلى ما تنطوي عليه أسرار ودقائق، ثم إنها بتحويلها للمتعاقبات مرتكز الزمن الرياضي إلى متزامنات تنمي حضور الذات نفسها فتتيح لها إمكانية الاستغلال الجيد لطاقاتها الشخصية بحيث تساعد أكثر على الفهم والرؤية وتكون أعمق وأشمل للواقع بكل ما فيه من موجودات[30].

إن الزمن هو عمق الكيان، والشعر كذلك تحرك للكينونة صلب نظام الكون، فبين الشعر والزمن تساوق وقرابة من جهة كون كل منهما تجسيداً للوعي ، فهما مصطلحين يتحالفان شكلاً ويتخالفان كنهاً وجوهراً ووظيفة"[31].

وفي هذا يرى "برفسون" إن أحسن شاهد على أن حقيقة الشعر في ضربه صفحاً بالحدود الزمنية التي هي من وضع المؤسسة الثقافية، فالمعروف عنده أن الزمن يتجاذبه نازعان: فهو إما الزمن الذي تقع على سلمه المتعاقبات متضامنة ولكنها في آنٍ منفصلة بعضها عن بعض، هذا الزمن الرياضي القابل للقياس هو زمن الديمومة، وإما هو زمن المدة، أي ذلك الذي تتداخل فيه الحقب وتفقد أحجامها لفائدة ضرب من الوجود الكتلوي التجريدي، فإذا كان الضرب الأول من الزمن يدرك تحليلياً وتفكيكياً، فإن الضرب الثاني منه يدرك ائتلافاً، فالأول من عمل المؤرخ

الذي مقصده بلوغ اليقين التاريخي، بينما الثاني من عمل الشاعر الذي غايته تعميق سؤال الهوية والكينونة[32].

فزمن الشعر هو مغامرة انطولوجية يلج عبرها الشاعر إلى فضاء متعدد الأبعاد تكون فيه الذات قادرة على ممارسة الكينونة كصيرورة تاريخية إذ الشعر –في هذا السياق– يعيد صياغة التشكلات التي يوجد عليها الكون ويدخلها في علاقات وأنساق جديدة لغاية اكتشاف حقيقتها وبهذا يكون الشعر فعل إبداع متحرر من التراث السلطوي والتحجر الماورائي ينفلت من ربكة القيد ويتطلع إلى قراءة التاريخ على النحو الذي يرتضيه"[33].

والشعر ظاهرة أدبية تضمن التواصل بين الباث والمتلقي، فأي عمل لا بد للأديب أو الشاعر أن ينبع من تجربة زمانية أو بلغة الفيزياء الحديثة "زمكانية" يستخدم الفنان شاعراً أو أديباً أو نحاتاً أو رساماً أو موسيقياً وغيرهم لغة الزمان والمكان لكي يعبر عن تجربة زمانية أو مكانية أو زمانية مكانية.[34]

يقول الشاعر بابلو نيرودا في قصيدته مئة قصيدة حب:

لا يكفيني الزمان كله لاطراء شعرك

لهذا أغني للنهار، للقمر للبحر للزمن، لجميع

الكواكب السيارة لكلماتك الساطعة لشهوتك

الليلية ستمضين، سنمضي معاً، على عباب الزمن[35].

كان الزمن لنيرودا المرفأ الوحيد الذي يخاطب به حبيبته وكذلك الأشياء التي تدور من حوله، وعندما ينهي شجونه – يطلق العنان للزمن ويمضي أسيراً مع تياره.

وهناك العديد من الشعراء منهم من خاطب الزمن، ومنهم من استسلم للزمن، ومنهم من ناضل ضده، وآخرون من ساروا طوعاً وخضوعاً وجرفهم تياره وكل على طريقته وبقى الزمان شاهد عيان على كل ما يدور وما يحدث[36].

"فالزمن ليس شيئاً موجوداً لذاته أو هو محايث للأشياء كما لو كان وجوده ضرورة موضوعية، وليست الأشياء مشروطة في وجودها بالزمن؛ إنما الزمن هو الشكل الحدسي الباطني للأشياء والمستقل عنها – وهو الذي ينظم في وعينا الباطني تشكل الأشياء وتمثيلها بخلاف المكان الذي هو الشكل الصريح للحدس الخارجي فالزمن هو الشرط الخالق لوجود الحقيقة المطلقة والمنظم لكل القوانين الكونية الخفية ومن غير الوعي به لا يكون بلوغ الحقيقة وبعبارة أخرى، فلا منفذ للشعر الذي هو دينامية شمولية خارقة إلا عن طريق التمثل الدقيق للمرحلة الزمنية في حياة الكائن، فمفهوم التغير ذاته ومفهوم الحركة لا يمكن مزاولتها إلا من خلال التمثيل الزمني وداخله، وإذا لم يكن هذا التمثيل حدساً أولياً باطنياً لم يستطع أي مفهوم من المفاهيم الفلسفية إجراء أولية التغير. ذلك أن –الزمن فضلاً عن خصائصه هو الموضع التجريدي التي تنحل داخله سائر التناقضات الكونية، فلولا التعاقب مثلاً – لما استطاع العقل الإنساني أن يتمثل عملين نقيضين يستهدفان من وجهة كون كلاهما يمكننا من تمثل المعارف التأليفية الأولية التي تأوي في جوفها نظرية الحركة العامة، وهي أساس المعرفة الكونية كلها في بعدها الشامل والأوفى"[37].

"فالزمن يسير في نسق متتابع ومرتب، فلا يمكن للماضي أن يسبق الحاضر، ولا يمكن للحاضر أن ياتي بعد المستقبل، ومن هذا التتابع تنشأ الديمومة طبيعياً"[38] ومن هنا نستطيع أن نميز بين أنواع الزمن وهي كالآتي:

1- الزمن الماضي.

2- الزمن الحاضر.

3- زمن المستقبل.

4- زمن الأسطورة.

وعلى الرغم من الفروق في تصور الزمن ووظيفته إلا أنه واحد في القيمة وفي الأهمية ورغم اختلاف تلك التصورات بين الجماعات البدائية وبين الجماعات التي تعيش في كنف الحضارة إلا أنه أشبه بالتيار المستمر ، فالشاعر أو الأديب غايته سامية تتجلى في عنايته بالقضايا الإنسانية إذ ليس الشاعر مهمته الإمتاع بالشعر، بل غايته أن يدين من هدم الإنسانية ويحمد من خدمها، فكانت قصائد الشعراء تتميز بالنظرة الرجوعية في الشعر أو النظرة الحاضرة التي يعيش في كنفها الأديب أو النظرة الزمنية المستقبلية التي تشمل تطلعاته وأماله المشرقة، وقد تميز الشعراء الليبيين بغزارة إنتاجهم الذي طرحوا فيه أهم قضاياهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فمن أهم القصائد التي تتحدث عن استخدام الزمن الماضي أو بالنظرة الرجوعة للماضي[39]. قصيدة الشاعر (علي الفزاني) التي بعنوان "تشكيل" فقد أبداع الشاعر في توزيع الأزمنة والمراحل التي مرت بها الشخصية التاريخية المشهورة وهي شخصية "نيرون" الطاغية الذي أحرق مدينة روما، فقد حللها نفسياً واستدعاها لنا زمنياً، فقد ذكر "نيرون" في بداية القصيدة "عندما كان طفلاً" ،"ثم عندما كان صبياً" ، ثم عندما بلغ سن الرشد".

يقول الشاعر:

عندما كان نيرون طفلا في المهد

قامت أمه مذعورة تصرخ

لقد قضم الطفل حلمتيها بأسنانه البنية ...[40]

ثم ينتقل فيقول:

عندما صار نيرون صبيا

فقأ عيون أطفال روما بالمقاليع الحجرية

عندما أصبح أكثر نمواً

دسّ – سمّ الفئران في آبار المدينة والقرى

دفقت خيول وأبقار – وهلك حشد من النسوة

والأطفال[41]

ثم يبرر أفعال المستقبلية فيقول:

عندما بلغ سن الرشد

استولى على قناديل الأطفال– وشموع المعابد

ومنذ ذلك الحين

صار العالم

يحترق![42]

(ويتمثل الزمن الحاضر في الفترة التي يعيشها الأديب ضمن نتاجه الأدبي مستخدماً في ذلك ما يدل عليها من رموز وألفاظ وإشارات)[43].

كما يقول الشاعر الليبي على الخرم في إحدى قصائده متحدث عن الزمن:

في هذا الزمن الفاجر

لا شيء بأصل حقيقته

تتقلب وجوه الأشياء

لتصبح أشياء أخرى

تتبدل فيه الأسماء والأشكال والألوان

لا شيء تظل حقيقته ثابتة

إلاّ الزيف

في هذا الزمن الغادر

لا ندري من أين يفاجئنا الموت ... وكيف

لقد نعت الشاعر الزمن بنعت قاس من كثر توجعه منه وسخطه على ما يحدث فيه، كما اتكأ على أفعال مضارعة تدل على الزمن الحاضر مثل (يبقى–لتصبح– تظل – تتبدل).

وكذلك استخدام اسم الإشارة (هذا) في بداية القصيدة يدل على الزمن الحاضر[44].

وكذلك يتحدث الشاعر عبداللطيف المسلاتي عن زمن المستقبل الذي يتأمل فيه الحرية والخير فيقول في إحدى قصائده:

يراودني حلم

أن الأرض تقاوم تزأر وتثور

الراية لن تسقط وإن قدت

فالوطن الأكبر ينتظر – الفتح – الوعد

المنشود

من يفتح بابا للشك

من يسأل يسأل فلا يخطئ؟[45]

أما زمن الأسطورة فقد حدده الفزاني في قصيدته (بكائية العنقاء) حين حدد زمن بحثه عن عنقاء الصحاري والبراري بألف عام ولم يجدها فقد كان استهلاكه للقصيدة أسطوريا فقد

جاء بأسلوب إسقاط الفكر الخيالي على المعنى الذي يرتجيه وإظهار ما يختلج في داخله من خلال بحثه عن شيء خرافي ليمهد الطريق لما يريد إيصاله من مغزى خاص وعام(46).

يقول:

ألف عام لم أجدها في كتاب الموت عنقاء الصحاري النائيات
أسئأل الآرام في البراري ... والفيافي، والطيور العائدات
ضائعاً كنت وكانت تختفي في الثوب مني والحنايا والقرون
آه يا تعس الحياة
ها أنا عري على دربي، وسيفي لم يعد سيف كماة...
آه غنت مثلما شاءت قيان الخلفاء
فلهونا ولعبنا، ورحلنا ورثانا الشعراء
ثم ماذا؟ يا عصور القهر ماذا؟ أينه العصر المضاء
سلب التاريخ منا كل شيء كل مجد العظماء
(طارق) مات وحيداً في سراديب البغايا وسجون الأدنياء
فلمن يشدو كنار العصر ويحي ويقول الفصحاء
كل ما يلقي هراء.(47)

الفزاني يغوص في أعماق الزمن الماضي لينطلق إلى الحاضر بكل ما فيه من فرح أو حزن وتمثل الماضي في أمجاد أمته وما صنع أبطال التاريخ الإسلامي "كطارق بن زياد" وغيره فقد تحسر على كل أمجاد أمته التي ضاعت فعبر بـ(آه يا تعس الحياة).

فقد شبه تلك الأمجاد بالطائر الأسطوري الذي فقده ولم يعد يجده فيسخر من الواقع ويستاءل بكل ألم وحسرة، وفي ذلك التساؤل دعوة للانتفاضة والثورة.

فالزمن في الأدب لا يمكن أن يتخذ شكلاً واقعياً إلا من خلال النص أو عالم النص الذي هو بناء مفترض لعالم الواقع، فالزمن في النص هو زمن متخيل مهما عبر عن الواقع، فالشاعر لا يتعامل مع المحسوس إلا بوصفه مُدخلاً للتخيل وكل عناصر الواقع تتحول في لغة الشعر إلى عناصر تخييل، ولابد أن يصاحب التخييل عنصر الزمن؛ لأنه يتأسس عليه، فقد سكن الزمن الإنسان بقوة؛ مثلما سكن الإنسان فيه، فصار له ماضٍ تاريخي، وحاضر واقعي يتطلع منه إلى زمن مجهول افتراضي متخيل لا يعلم عنه شيئاً سميّ (المستقبل)[48].

مما سبق نلخص إلى الآتي:

1- إن الأديب لا غنى له عن الزمن، فلابد من أن ينسج في تياراته المتعددة فالشاعر تحركه أحداث المجتمع بحكم العلاقة القائمة بينهما، وبالتالي يكون الزمن هو المسار الذي من خلاله يوصلنا الشاعر لما يرمي إليه، فقد ذكر الشعراء الزمن الماضي، وتغنوا بحلوه ومره، وتغنوا بالديار والأطلال وأيام الطفولة والصبا، وخير دليل على ذلك الشعر الجاهلي الذي أوقف واستبك الديار والأطلال، كما صورا الشعراء في قصائدهم الزمن الحاضر، وذلك إما بالسآمة منه أو بالفرح والسعادة به، وتغنوا كذلك بالمستقبل، وتسألوا عنه وتأملوا فيه خيراً.

2- إن توظيف الشعر بشكل مكثف – لعالم الأسطورة والرمز والتاريخ والأقنعة التاريخية والتراثية يضفي على التجربة الشعرية تأمل ورؤيا جديدة تسهم في توليد معانٍ حديثة داخل النص الشعري تقرب المسافة بين (المرسل والمتلقي).

3- إن الزمن الأسطوري مدخل في دراسة التاريخ من الناحية الشعرية، فأي عمل لابد للأديب أو الشاعر أن ينبع من تجربة زمانية أو مكانية أو زمانية مكانية.

4- إن تغلغل الأسطورة في الأدب ، وقيام الشعراء بتناولها وامتصاص دلالاتها؛ إنما ليعبروا بها عن آمالهم وآلامهم وقضايا مجتمعهم، كما تعتبر العودة الحقيقية إلى المنابع البكر للتجربة الإنسانية.

هوامش البحث:

(1) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث، بيروت، ط2، 1992م، مادة: ز م ن، ص: 210.

(2) ينظر: مجد الدين بن يعقوب، قاموس المحيط، مصر، ط2، 1952م، ص: 233.

(3) ينظر: زكريا إبراهيم، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، القاهرة، ط1، د-س، ص: 81-82.

(4) ينظر: يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي، سلسلة دراسات نقدية، دار الفارس، بيروت، ط1، 1990م، ص: 76.

(5) ينظر: ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ترجمة نصر الدين الطوسي، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط2، د-س، ص436-437.

(6) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1997م، ص: 3.

(7) ينظر نفسه، ص: 76-77.

(8) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين، دمشق، ط8، 1997م، ص: 14.

(9) أنس داود، الأسطورة في الشعر المعاصر، مكتبة عين شمس، القاهرة، ط1، 1975م، ص: 19.

(10) نفسه، ص: 37.

(11) ينظر: أحمد إسماعيل النعيمي، الأسطورة في الشعر العربي، دار ابن سينا ، القاهرة، ط1، 1995م، ص: 200-205.

(12) سليمان حسن زيدان، الزمان والمكان في الشعر الليبي، مجلس الثقافة العام – ليبيا، د-ط، 2008م، ص7-8.

(13) ينظر: عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس للطباعة، بيروت، ط1، 1978م، ص: 35.

(14) سليمان زيدان، قراءات نقدية في الأدب الليبي، المؤسسة العامة للثقافة – ليبيا، ط1، 2010م، ص69-71.

(15) ينظر: سليمان حسن زيدان، الزمان والمكان في الشعر الليبي المعاصر، ص: 40.

(16) محفوظ محمد أبوحميدة، قراءات في الأسطورة، منشورات اللجنة الشعبية للثقافة، ليبيا، ط1، د-س، ص: 24-25.

(17) سليمان حسن زيدان، الزمان والمكان في الشعر الليبي المعاصر، ص: 23.

(18) عبدالصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته، الدار العربية للكتاب، ط1، المجلد الأول، 2005م، ص:1-2.

(19) ينظر: محمد السوري، رؤية في ثلاثية الزمن من خلال الأدب، تموز، 2007م، ص: 1-2.

(20) عامر أحمد عامر ، الزمن في الشعر العربي، ص: 76.

(21) أبي زكرياء يحيى بن علي التبريزي، شرح القعائد العشر، دار الكتب العامة، بيروت، لبنان، ط2، 1987م، ص: 6.

(22) نفسه، ص: 7-8.

(23) ديوان أبوالطيب المتبني، شرح أبي البقاء العكبري، ط2، مصر، 1936م، ص: 43.

(24) محمد السوري، رؤية في ثلاثية الزمن من خلال الأدب، ص: 21.

(25) ينظر: نفسه، ص1.

(26) عبدالصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته، ص: 2.

(27) ينظر: نفسه، ص: 3.

(28) نفسه، ص: 3.

(29) عبدالعزيز بومسهولي، الشعر والتأويل، قراءة في شعر أدونيس، مطبعة أفريقيا الشرق، المغرب، 1989م، ص: 17.

(30) ينظر: عبدالصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته، ص: 3.

(31) محمد بن عياد، الزمن والشعر، تونس مجلة علامات، العدد السابع عشر، ص: 40-41.
(32) ينظر: عبدالصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته، ص: 16-17.
(33) عبدالعزيز بومسهولي، الشعر والتأويل، قراءة في شعر أدونيس، ص: 1.
(34) ينظر: عبداللطيف الصديقي، الزمان أبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1995م، ص: 143.
(35) نفسه، ص: 141.
(36) ينظر نفسه، ص: 141-142.
(37) كانط، العقل الصريح، مطابع فرنسا، ط12، باريس، 1953م، ص: 69.
(38) سليمان زيدان، الزمان والمكان في الشعر الليبي، ص: 26.
(39) ينظر : نفسه، صك 27-28.
(40) علي الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، أرقص حافياً، ص: 17.
(41) نفسه ، ص: 17.
(42) نفسه، ص: 17-18.
(43) سليمان زايد زيدان، الزمان والمكان في الشعر الليبي، ص: 31.
(44) ينظر: نفسه، ص: 32-33.
(45) عبداللطيف المسلاتي، ديوان سفر الجنون، المنشأة العامة للنشر، طرابلس، ليبيا، ط3، ج1، 1985م، ص: 78.
(46) ينظر : سليمان زيدان ، الزمان والمكان في الشعر الليبي، ص: 52-53.
(47) علي الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، ص: 288-289.
(48) ينظر: سليمان زيدان، الزمان والمكان في الشعر الليبي، ص: 64.
وينظر: حسين جمعة، فكرة الزمن في بعض دراسات المحدثين العرب للشعر القديم، ص: 1.